الظاهرة الاستعراضية في صحف المقاومة الفلسطينية

د. أحمد أبو مطر

قضيّتنا الوطنية الفلسطينية تعاني منذ سنوات مخاضاً عسيراً على جميع المستويات.. وإيماناً منّا بضرورة إرجاع النبض الفعّال للقضيّة الفلسطينية، وسط حالة التفتُّت القومي والطائفي والمذهبي، فإنّ الآداب تفتح صفحاتها لأيِّ نقاش أو رأي يبلور صيغاً أكثر تقدماً في سبيل توثيق العرى بين المقاومة وجماهيرها.. ونبدأ مع بحث الدكتور أحمد أبو مطر في مسألة تستفحل خطورتها على الساحة الفلسطينية (والعربية)، هي مسألة «العبادة الفرديّة للقيادات»، مع ما يستتبع ذلك من غياب نقد موضوعي وعقلاني لأخطاء المقاومة أو لنهجها السائد.

«التحرير»

ينبغي أن تكون تجربة عشرين عاماً في صحف المقاومة ومجلّاتها، قد تمكّنت من ترسيخ أصول صحفية، يُعتدّ بها، وتعتبر من المسلمات والبديهيات، خصوصاً وأن الساحة الفلسطينية قد حظيت بالعديد من الأسماء الكبيرة، ذات الماضي الصحفي المهني الجيد، وذات الخبرة الطويلة في الصحف والمجلات العربية المعروفة. إلا أن هذا لم يتحقّق لصحف المقاومة ومجلّاتها، مما جعلها في أغلب الأحيان والحالات مجرد صفحات مطبوعة بدون مبرّر موضوعي، وبصعوبة كبيرة يطلق عليها اسم (صحيفة) أو (مجلة). وعبر هذه المسيرة الطويلة، رسّخت صحف المقاومة ومجلاتها مجموعة من السلبيات والنواقص، أصبحت السمة الأساسية لأغلبها، مما جعلها تكاد تكون (نسخة واحدة)، من الصعوبة تمييزها عن بعض. وليس مبالغة القول إن لدينا العديد من الصحف والمجلات، لا تختلف عن بعضها لا في الأسلوب ولا في المضمون رغم صدورها عن تنظيمات مختلفة، وقد أدّى ذلك إلى عدم فاعلية هذه الصحف، خصوصاً في الوسط الجماهيريّ الفلسطينيّ والعربيّ الذي تتوجّه إليه أساساً.

وعبر دراسة موضوعية، ومساهمات طويلة، في العديد من هذه الصحف والمجلات، وفي أكثر من ساحة، يمكن إطلاق صفة (الظاهرة الاستعراضية) على مجمل السلبيات والنواقص التي ترسّخت طوال تلك السنوات، وأدّت إلى هذه الحالة... وتتبدّى هذه الظاهرة الاستعراضية في عدة مظاهر، ليس شرطاً توفرها كلها في كلّ الصحف والمجلات، ولكن وجود بعضها أو العديد منها في كل صحيفة ومجلة، يجعل من المنطقيّ والموضوعيّ جمعها في ظاهرة واحدة.. وأهم هذه المظاهر:

١ ـ المصداقية والحقيقة:

كان الانطباع الأوليّ لدى الجماهير الفلسطينية

والعربية، إزاء صحف المقاومة ومطبوعاتها، أنها تتميّز بالمصداقية وقول الحقيقة، وهما صفتان لا تتوفّران في غالبية الصحف العربية، المملوكة للأنظمة العربية، إما بشكل مباشر أو غير مباشر... وقد أصرت بعض مجلّات المقاومة على هذا، فكان شعارها (الحقيقة.. كل الحقيقة للجماهير) أو (من أجل الإنسان والأرض) أو (لا صوت يعلو على صوت الشعب) أو (الشعب أولاً وأخيراً)...، إلخ. كان هذا الإقرار الصريح الواضح بقول الحقيقة ومصارحة الشعب، هو ما جعل الجماهير الفلسطينية والعربية، تتلهّف على قراءة هذه الصحف والمجلات، وليس مبالغة القول، بأن جريدة (فتح) في مرحلة الأردن، ومجلتي (الهدف) و(الحرية) في بداية صدورهما في لبنان، قد استقطبتا من القراء والأصدقاء والمتتبعين ما لم يكن متوقعاً، فمن كان يصدق أو يتصور أن جريدة (فتح) في مرحلة الأردن، كانت تطبع أكثر من طبعة، وتوزع ما يزيد على ربع مليون نسخة...؟

وتدريجياً، ومع التكاثر اللامنطقي للمنظّمات الفلسطينية، أصبحت الصعوبة التنظيمية هي الأساس في أطروحات أغلب هذه الصحف والمجلات؛ وهذا ما أبعدها تدريجياً عن الحقيقة، إذ أصبح همّها الأساسي، الدفاع عن مواقف التنظيم، وفي الغالب إزاء تنظيمات أخرى، مما جعلها في النهاية صحفاً ناطقة بشكل ضيق بلسان التنظيم الصادرة عنه. وقد ضيّق ذلك من مساحة جمهورها، فأصبح أغلبها غير معروف أو غير متداول إلا في مكاتب التنظيم ودوائره شبه المغلقة والبعيدة عن القرّاء والجماهير.

بالإضافة لما سبق، كانت صدمة القراء والجماهير أكبر في الجانب السياسي المتعلّق بتطورات القضية الفلسطينية، وبالذات على الصعيد العربي، فأغلب هذه المجلات لم تقل الحقيقة كل الحقيقة لجماهيرها، فأصبح القارىء لا يعرف الحقيقة لا من صحف المقاومة ولا من الصحف العربية الرسمية وشبه الرسمية، فوقف حائراً همّه الحقيقة والصدق، يبحث عنهما فلا يجدهما، وهناك العديد من الموضوعات والمواقف التي عاشتها المقاومة، وعصفت بالقضية، لم تكن هذه الصحف والمجلات تتعامل معها بانسجام كامل مع موضوعة الحقيقة والصدق، وهذا عائد إمّا إلى الدفاع عن موقف تنظيمي أو عدم الجرأة في مواجهة الأنظمة العربية.

وقد أسهم في ذلك تعدّدية الصحف والمجلات والنشرات، المملوكة للمقاومة، أو المموّلة منها، إذ سعت إلى المحاباة والتزلّف، وهذا دائماً على حساب الحقيقة الموضوعية، فأنتج ذلك الهوّة الشاسعة بين الصحيفة والجماهير التي أشرنا إليها.. ولا يمكن أن يتصور عقل أو منطق أن قضية وطنية واضحة كـ(فلسطين)، يمكن أن تبرّر هذا الكم الهائل من الصحف والمجلّات والدوريات والنشرات والمطبوعات، التي لو التزمت الحقيقة والمصداقية الكاملة، لما احتاجت هذه الفصائل والتنظيمات إلى هذا الكم العدديّ غير المنطقي.

٢ ـ النرجسية النجومية:

من هذه المظاهر التي أصبحت من السمات السلبية لصحف المقاومة ومجلاتها، ما أسميه (النرجسية النجومية) التي تتعامل مع (الفرد) كشخص، وليس مع أطروحاته ومواقفه وأفكاره. ويتبدّى هذا المظهر في الإصرار الذي لا يمكن وصفه إلا بـ(نرجسية نجومية مريضة)، والمتمثل في نشر صورة (الفرد) مع كل خبر أو تعليق أو تصريح أو مقابلة، متناسية أنها صحف مقاومة، ينبغي أن يبقى أغلب كادرها سرياً، غير معروفة صوره لأجهزة الأمن المعادية. لقد أصبح هذا المظهر منفّراً للغاية، ويكفي التقاط أيّ عدد من أعداد هذه الصحف والمجلات بشكل عشوائي وبدون تجنٍّ، لرصد الصور المنشورة للأعضاء والقيادات والكوادر والأصدقاء، مما يذكرني بأبواب (هواة المراسلة والتعارف) في المجلات الفنية العربية، وأفضل وسيلة للتدليل على ذلك، الدراسة التطبيقية الميدانية لنماذج عشوائية من هذه المجلات، وليكن الجميع على يقين من موضوعية الطرح وعشوائية الانتقاء الذي لا يهدف إلا إلى تأصيل السلوكيات الإعلامية الموضوعية، فلا نهدف إلى المناكفة والتجريح...

● مثال جريدة فتح:

هذا النموذج العشوائي للنرجسية النجومية، سآخذه من ثلاثة أعداد من جريدة فتح، فماذا نجد؟

العدد (٣٠) الإثنين ١٨/٣/١٩٨٥):

● في الصفحة الثانية صورة للأخ قدري ــ عضو القيادة المؤقتة لحركة فتح.

● في الصفحة الثالثة صورة للأخ جابر سليمان عضو المجلس الثوري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

● في الصفحة الثالثة صورة للأخ أبو خضر، مشرف إقليم سوريا في حركة فتح.

العدد (٣١) الإثنين ٢٥/٣/١٩٨٥:

● في الصفحة الثانية، صورة للأخ أبو موسى، أمين سر القيادة المؤقتة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

● في الصفحة الثالثة، صورة للأخ أبو موسى (للمرة الثانية) ومعه بعض القيادات.

● في الصفحة الثالثة أيضاً، صورة للأخ أبو موسى (للمرة الثالثة) ومعه قيادات أخرى من بينهم المقدم أبو رعد، مساعد رئيس غرفة العمليات في حركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

● في الصفحة الرابعة صورة للعقيد أبو خالد العملة الناطق الرسمي باسم القيادة المشتركة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

العدد (٣٢) الإثنين ١/٤/١٩٨٥:

● في الصفحة الثانية صورة للعقيد أبو موسى، أمين سر القيادة المؤقتة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

● في الصفحة الخامسة صورة للعقيد أبو خالد العملة الناطق الرسمي باسم القيادة المشتركة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح، وصورة للأخ فواز قائد معسكر الشهيد عبدالله صَيام.

● في الصفحة السابعة، صورة للمقدم زياد الصغير، نائب أمين سر المجلس الثوري لحركة فتح.

● في الصفحة الثامنة صورة للأخ جابر سليمان عضو المجلس الثوري لحركة فتح، وصورة للأخ بسام هلسا رئيس تحرير جريدة فتح، وصورة للأخ أبو خضر مشرف إقليم سوريا في حركة فتح.

● مثال مجلة القاعدة:

وعند تطبيق نفس النموذج العشوائي على مجلة «القاعدة» نجد:

العدد (٤١) ٥/١٢/١٩٨٤:

● صورة الغلاف، رسم زيتي للأخ عبدالفتاح غانم، أمين سر اللجنة المركزية لجبهة التحرير الفلسطينية.

● في الصفحة الثالثة، الرسم الزيتي نفسه للأخ عبدالفتاح غانم.

● في الصفحة السادسة، صورة للأخ عبدالفتاح غانم.

● في الصفحة السابعة، صورة للأخ عبدالفتاح غانم.

● في الصفحة الثامنة، صورة للأخ عبدالفتاح غانم.

● في الصفحة التاسعة عشرة، صورة للأخ أبو عبده التونسي (مقاتل).

● في الصفحة العشرين، صورة للأخ أبو الوليد ــ يوسف قطناني، عضو القيادة المؤقتة لجبهة التحرير الفلسطينية، قائد القوات.

هذا بالإضافة للعديد من الصور لقيادات من تنظيمات أخرى، من بينها صور الدكتور سمير غوشه، والأخ قدري، والأخ نايف حواتمه، والدكتور جورج حبش.

العدد (٢) ٣٠/١/١٩٨٥:

● في الصفحة الرابعة عشرة، صورة للأخ عبدالفتاح غانم، أمين سر اللجنة المركزية لجبهة التحرير الفلسطينية.

● في الصفحة الثامنة عشرة، صورة للأخ عبدالهادي النشاش، عضو القيادة المؤقتة لجبهة التحرير الفلسطينية، مسؤول دائرة الإعلام المركزي، رئيس تحرير مجلة القاعدة.

هذا بالإضافة لصور قيادات من تنظيمات أخرى منها صورة الأخ نايف حواتمة، وصورة جماعية للأخ قدري والأخ أحمد جبريل والدكتور سمير غوشه والأخ عصام القاضي.

العدد (٩) ٢٠/٣/١٩٨٥:

● في الصفحة الثانية عشرة، صورة للأخ أبو مروان عضو القيادة المؤقتة لجبهة التحرير الفلسطينية.

● في الصفحة الثالثة عشرة، صورة جماعية يظهر فيها الأخ أبو السعيد أمين سر إقليم سوريا وبعض كوادر الجبهة.

● **مثال مجلة الهدف:**

وعند تطبيق نفس النموذج العشوائي على مجلة الهدف، نجد:

العدد (٧٥٦) ١٩٨٥/٢/٤:

● في الصفحة التاسعة عشرة، صورة للدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

● في الصفحة العشرين، صورة للأخ صلاح صلاح عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

العدد (٧٦٢) ١٩٨٥/٣/١٨:

● في الصفحة السادسة، صورة للدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

● في الصفحة الرابعة عشرة، صورة للأخ أبو علي مصطفى نائب الأمين العام المساعد للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

● في الصفحة الخامسة عشرة، صورة للدكتور جورج حبش، وصورة للأخ أبو ماهر اليماني، عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وفي العدد صور قيادات أخرى، منها الأخ نايف حواتمة.

العدد (٧٦٥) ١٩٨٥/٤/٨:

● في الصفحة السادسة، صورة للدكتور جورج حبش.

● في الصفحة الثالثة عشرة، صورة للأخ صلاح صلاح.

● في الصفحة الثامنة عشرة، صورة للأخ أبو العبد يونس عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

● في الصفحة التاسعة والعشرين، صورة للدكتور جورج حبش.

وفي العدد صور قيادات أخرى منها الأخ خالد الفاهوم وياسر عرفات.

● **مثال مجلة «نضال الشعب»:**

وعند تطبيق نفس النموذج العشوائي على مجلة «نضال الشعب»، نجد:

العدد (٤٠٠) ١٩٨٥/٣/١١:

● في الصفحة الثالثة، صورة للدكتور جورج حبش.

العدد (٤٠١) ١٩٨٥/٣/١٨:

● في الصفحة الثالثة، صورة للدكتور سمير غوشة، الأمين العام لجبهة النضال الشعبي.

● في الصفحة الحادية عشرة، صورة للدكتور سمير غوشة.

العدد (٤٠٢) ١٩٨٥/٤/١:

● في الصفحة الثالثة، صورة جماعية للأمناء العامين لفصائل جبهة الإنقاذ الوطني الفلسطيني.

● في الصفحتين العاشرة والحادية عشرة، تتكرر الصورة السابقة نفسها ثلاث مرات.

● في الصفحة الثانية عشرة، تتكرر الصورة السابقة ذاتها.

● **مثال مجلة «الحرية»:**

وعند تطبيق دراسة النموذج على مجلة «الحرية»، نجد:

العدد (١١٨٠) ١٩٨٥/٣/٣:

● في الصفحة السادسة، صورة للأخ طلعت يعقوب الأمين العام لجبهة التحرير الفلسطينية.

● في الصفحة السادسة عشرة، صورة للأخ نايف حواتمة، الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

العدد (١١٨١) ١٩٨٥/٣/١٠:

● في الصفحة الثالثة، صورة للأخ نايف حواتمة.

● في الصفحة العاشرة، صورة للأخ طلعت يعقوب.

● في الصفحة الثانية عشرة، صورتان للأخ نايف حواتمة.

● في الصفحة الرابعة عشرة، صورة للدكتور جورج حبش.

● في الصفحة الخامسة عشرة، صورة للدكتور سمير غوشة، وصورة للأخ محمد زهدي النشاشيبي.

● في الصفحة الثامنة والعشرين، صورة للأخ نايف حواتمة، والأخ ياسر عبدربه الأمين العام المساعد للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

● في الصفحة الثانية والثلاثين، صورة للأخ محمد زهدي النشاشيبي.

وفي العدد صور لقيادات فلسطينية وعربية مختلفة.

العدد (١١٨٣) ١٩٨٥/٣/٢٤:

● في الصفحة الثالثة، صورة للأخ ياسر عبدربه.

● في الصفحة الحادية عشرة، صورة للأخ نايف حواتمة.

● في الصفحة الثانية عشرة، أربع صور جماعية يظهر فيها كلها الأخ نايف حواتمة.

● في الصفحة الثالثة عشرة، صورة للأخ ياسر عبدربه.

● في الصفحة الرابعة عشرة، صورة للأخ نايف حواتمة.

● في الصفحة الخامسة عشرة، صورة جماعية يظهر فيها الأخ نايف حواتمة والأخ أحمد جبريل والأخ عصام القاضي وقيادات أخرى.

وفي العدد صور لقيادات عديدة منها الأخ صلاح خلف.

● مثال مجلة «فلسطين الثورة»:

وعند تطبيق النموذج على مجلة «فلسطين الثورة» الناطقة بلسان حركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح (المجلس الثوري).

العدد (١٤٦) ١٩٨٥/٣/١٥:

● لا يوجد في العدد أية صورة لأيّ قياديّ من تنظيم (المجلس الثوري).

● ولكن في العدد ذاته صور لقيادات من تنظيمات أخرى منها: صورة للأخ صلاح خلف (ص ٢٦) وصورة للأخ ياسر عرفات (ص ٢٦)، وصورة جماعية يظهر فيها الدكتور جورج حبش ونايف حواتمة وياسر عرفات (ص ٣١)، وصورة جماعية أخرى يظهر فيها الدكتور جورج حبش، نايف حواتمة، ياسر عرفات، خالد الفاهوم، وبسام أبو شريف (ص ٣٢)، وتتكرر الصورة الجماعية ذاتها ص (٣٢) و(٣٤) و(٣٥) و(٣٦) بقياسات مختلفة، وصورة لخالد الفاهوم (ص ٣٩).

العدد (١٣٩) ١٩٨٤/١٢/١:

● لا يوجد في العدد أية صورة لأي قيادي من تنظيم (المجلس الثوري).

● ولكن في العدد ذاته عدة صور لياسر عرفات، على الغلاف، وفي ص (٣١) وص (٣٣) وص (٣٤) و(٣٥).

العدد (١٤٢) ١٩٨٥/٢/١:

● لا يوجد في العدد أية صورة لأي قيادي من تنظيم (المجلس الثوري).

● ولكن في العدد ذاته صور لياسر عرفات ص (٣٧) ولمحمود عباس (أبو مازن) ص (٣٩)، ولنايف حواتمة ص (٤٥).

● مثال مجلة «إلى الأمام»:

وعند دراسة النموذج مطبقاً على مجلة «إلى الأمام» نجد:

العدد (٨٧٣) ١٩٨٤/٥/٢٦:

● على الغلاف صورة للأخ أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

● على الغلاف (أيضاً) صورة للأخ عصام القاضي الأمين العام لمنظمة طلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة).

● على الغلاف (أيضاً) صورة للدكتور سمير غوشة الأمين العام لجبهة النضال الشعبي الفلسطيني.

● على الغلاف (أيضاً) صورة للعقيد أبو موسى، أمين سر القيادة المؤقتة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح.

● على الغلاف (أيضاً) صورة للأخ قدري، عضو القيادة المؤقتة لحركة فتح.

● في الصفحة (السادسة) صورة للأخ أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

● في الصفحة (السابعة والعشرين) صور لكل من: الأخ أحمد جبريل، الأخ عصام القاضي، الأخ سمير غوشة، العقيد أبو موسى، والأخ قدري.

● في الصفحة (الثامنة والعشرين) صورة جماعية يظهر فيها الأسماء السابقة كلها.

● في الصفحة (الثالثة والثلاثين) صورة جماعية يظهر فيها الأسماء السابقة كلها.

● في الصفحة (السادسة والثلاثين) صورة جماعية يظهر فيها الأسماء السابقة كلها.

● في الصفحة (الثامنة والثلاثين) صورة جماعية يظهر فيها الأسماء السابقة كلها.

● في الصفحة (التاسعة والثلاثين) صورة جماعية يظهر فيها الأسماء السابقة كلها.

العدد (٩٠٢) ١٩٨٤/١٢/٢٩:

● في الصفحة السادسة عشرة، صورة للأخ فضل شرورو أمين سر المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

العدد (٨٩٧) ١٩٨٥/١١/٢٤:

● في الصفحة الثامنة صورة للأخ أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

● في الصفحة العاشرة صورة للأخ أحمد جبريل.

● في الصفحة الثالثة عشرة صورة للأخ أحمد جبريل.

● في الصفحة الرابعة عشرة صورة للأخ أحمد جبريل.

● في الصفحة السادسة عشرة صورة للأخ عصام القاضي.

● في الصفحة التاسعة عشرة صورة للدكتور سمير غوشة.

● في الصفحة الثانية والعشرين صورة للأخ عبدالمحسن أبو ميزر.

● في الصفحة الرابعة والعشرين صورة للأخ طلال ناجي الأمين العام المساعد للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

● في الصفحة الخامسة والعشرين صورة للأخ قدري.

● في الصفحة السادسة والعشرين صورة للأخ محمد خليفة.

● في الصفحة الثامنة والعشرين صورة للأخ طلال ناجي.

● في الصفحة الثلاثين صورة للأخ أبو ماهر اليماني.

● في الصفحة الثانية والثلاثين صورة للأخ طلال ناجي.

● **مثال مجلة «الطلائع»:**

وعند دراسة النموذج مطبقاً على مجلة «الطلائع»، نجد:

العدد (٧٣١) ١٩٨٥/٣/٢٦:

● في الصفحة الثامنة صورة للأخ عصام القاضي أمين سر طلائع حرب التحرير الشعبية ــ قوات الصاعقة.

● في الصفحة التاسعة صورة يظهر فيها الأخ عصام القاضي.

العدد (٧١٧) ١٩٨٤/١٢/١٨:

● في الصفحة السادسة صورة للأخ عصام القاضي.

● في الصفحة السادسة صورة للأخ محمد خليفة.

● في الصفحة السادسة صورة للأخ محمد عبدالعال عضو القيادة العامة لقوات الصاعقة.

● في الصفحة السابعة صورة جماعية، يظهر فيها الأخ عصام القاضي، والدكتور سمير غوشة.

● في الصفحة السابعة صورة للدكتور جورج حبش.

وفي العدد صور لقيادات أخرى منها: ياسر عرفات وصلاح خلف وفاروق القدومي.

العدد (٧٢٣) ١٩٨٥/١/٢٩:

● في الصفحة الثامنة صورة للأخ فرحان أبو الهيجاء رئيس دائرة الإعلام في منظمة طلائع حرب التحرير الشعبية ــ قوات الصاعقة.

● **مثال مجلة «فلسطين الثورة» فتح ــ عرفات:**

وعند دراسة النموذج مطبقاً على مجلة «فلسطين الثورة» التي تصدر باسم حركة فتح ــ عرفات نجد:

العدد (٥٤٠) ١٩٨٥/١/١٢:

● على الغلاف صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة السادسة صورة الأخ ياسر عرفات، وصورة الأخ أبو مازن وصورة الأخ أبو العباس.

● في الصفحة السابعة صورة للأخ صلاح خلف.

● في الصفحة الثامنة صورة للأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الحادية عشرة صورة للأخ صخر أبو نزار سفير منظمة التحرير في موسكو.

● في الصفحة السابعة والعشرين صورة للأخ ياسر عرفات بحجم صفحة كاملة ملونة.

● في الصفحة الثامنة والعشرين صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات، وصورة أخرى يظهر فيها الأخ ياسر عرفات، وصورة ثالثة يظهر فيها الإخوة: ياسر عرفات وخليل الوزير وصلاح خلف وآخرون.

● في الصفحة التاسعة والعشرين صورة يظهر فيها الإخوة: صلاح خلف وياسر عرفات وخليل الوزير، وفي الصفحة نفسها صورة ثانية يظهر فيها الإخوة أنفسهم، وصورة ثالثة كذلك.

● في الصفحة الثلاثين صورة جماعية يظهر فيها الإخوة: ياسر عرفات، خليل الوزير، صلاح خلف، وفي الصفحة ذاتها صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات، وصورة للأخ عباس زكي ممثل منظمة التحرير في عدن.

● في الصفحة الحادية والثلاثين صورة جماعية يظهر فيها: الإخوة خليل الوزير وعبدالحميد السايح وصلاح خلف وياسر عرفات وسليم الزعنون، وفي الصفحة أيضاً صورة يظهر فيها ياسر عرفات، وصورة ثالثة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الثانية والثلاثين صورة للأخ ياسر عرفات، وأعلى الصفحة صورة للأخ ياسر عرفات، وفي الصفحة كذلك ثلاث صور جماعية يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الحادية والخمسين صورة للأخ عبدالرحيم أحمد الأمين العام لجبهة التحرير العربية.

● في الصفحة الثالثة والخمسين صورة للأخ أبو العباس.

العدد (٥٣٣) ١٧/١١/١٩٨٤:

● في الصفحة الثالثة صورة للأخ ياسر عرفات وصورة للأخ فاروق قدومي.

● في الصفحة الأربعين صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الثانية والخمسين صورة للأخ ياسر عرفات وصورة للأخ فاروق قدومي.

● في الصفحة الرابعة والخمسين صورة للأخ نايف حواتمة وصورة للدكتور جورج حبش.

العدد (٥٤٦) ٢٢/٢/١٩٨٥:

● في الصفحة الثالثة صورة للأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة السابعة صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة التاسعة والعشرين صورة للأخ ياسر عرفات بحجم الصفحة وملونة.

● في الصفحة الثلاثين صورة يظهر فيها الأخ ياسر عرفات ومجموعة من القيادات العسكرية الفلسطينية، وفيها كذلك صورة ثانية يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الثالثة والثلاثين يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

● في الصفحة الرابعة والثلاثين يظهر فيها الأخ ياسر عرفات.

* * *

● التحليل والاستنتاج:

إن تقديم النماذج السابقة من تسع مجلات فلسطينية، بواقع ثلاثة أعداد من كل مجلة، أي (٢٧) عينة، تكفي لأن تكون ميدان دراسة تطبيقية، نحلل من خلالها أسلوب هذه المجلات ومنهجها في التعامل مع الحدث والشخصية الفلسطينية، وصولاً إلى استنتاج السمات العامة التي أصبحت تحدد معالم شخصية هذه المجلات. وسوف ندرس هذه السمات عبر العناوين الأساسية لها، وأهمها:

(أ) عبادة الفرد:

يلاحظ من دراسة هذه العينات أن هذه المجلات، قد كرّست خلال السنوات السابقة، نهجاً يتنافى تماماً مع طبيعة الأداة الثورية التي تصدر عنها هذه المجلات، فأداة الثورة دائماً هي القيادة الجماعية التي ترفض نهج تكريس عبادة الفرد، وهذه العبادة، تتكرس في أغلب دول العالم الثالث بوسائط عديدة، أطلق عليها البعض اسم (صناعة الديكتاتور)، وإذا كان إيماننا بأن هذه الصفة لا تنطبق على

أغلب قيادات المقاومة، فإن هذا لا ينفي تشريح هذه الظاهرة الفردية التي تكرست في أوساط المقاومة الفلسطينية عبر هذا التركيز المستمر على قيادات الصف الأول، سواء بنشر الصورة أو الخبر أو المقابلة، وفي أحيان عديدة، بدون مبرر موضوعي.. فكيف يستسيغ العقل والمنطق أن ينشر للأخ عبدالفتاح غانم خمس صور في العدد (٤١) من مجلة «القاعدة»، أو ثلاث صور للعقيد أبو موسى في العدد (٣١) من جريدة فتح، أو أربع صور لكافة الأمناء العامين لفصائل جبهة الإنقاذ الوطني الفلسطيني في عدد (٤٠٢) من مجلة «نضال الشعب»، أو سبع صور للأخ نايف حواتمة في العدد (١١٨٣) من مجلة «الحرية»، اثنتان منها فرديتان، وأربع ضمن صور جماعية، أو ثماني صور للأخ أحمد جبريل، ثلاث منها فردية، وخمس ضمن صور جماعية، أو أربع صور فردية لياسرعرفات، وثماني صور ضمن صور جماعية في العدد (٥٤٠) من مجلة «فلسطين الثورة»...، إلخ. إن هذا التركيز على الفرد أدى إلى أن يصبح هتافاً شهيراً من هتافات أشبال فصائل المقاومة وكوادرها هو الهتاف القائل:

ـ بالروح بالدم نفديك يا أبو عمار.
أو ـ بالروح بالدم نفديك يا حكيم.
أو ـ بالروح بالدم نفديك يا أبو خالد.
أو ـ بالروم بالدم نفديك يا نايف...، إلخ، كافة الأمناء العامين لفصائل المقاومة، وهو هتاف كان وما يزال يتكرر في المناسبات كافة. إن هذا النهج وما يستتبعه من سلوكيات، يتناقض تماماً مع السلوك الثوري الذي تكون فيه الأولويات دائماً للشعب والأرض وليس الفرد الذي تمت صناعته ـ في أغلب الأحيان ـ بشكل قسري. إن عبادة الفرد هذه، تقابل في أغلب الحالات ـ الجماهيرية بالذات ـ باستهجان كبير، لأنها كرست الفردية والمظهرية، ووضعت الفرد في اعتبار يفوق الوطن والقضية.

(ب) انعدام الحس الأمني:

إن دراسة العينات السابقة من صحف المقاومة ومجلاتها، تضع اليد على مسألة خطيرة، لا نبالغ إذا قلنا إنها من أخطر المسائل التي تدلّل على تعلق غالبية القيادات والكوادر بالمظهرية النجومية الفارغة المخلّة بأمن الثورة، لأنها تعطي أجهزة الأمن المعادية معلومات مجانية عن قيادات المقاومة وكادرها العسكري. من الممكن أن يجد المرء مبرراً لنشر صور شخصية سياسية باتت رمزاً معروفاً في الساحتين العربية والدولية، كالدكتور جورج حبش، ولكن ليس بالإفراط النجومي الذي لاحظناه، إلا أن المرء لا يمكنه أن يستوعب مبرراً لنشر الأسماء الحقيقية والحركية والصور الشخصية العادية والملونة، وبكافة (البوزات) كما يقولون في عالم التصوير، للقيادات العسكرية والأمنية، كما لاحظنا في العينات السابقة التي استعرضناها، ومنها:

- صورة العقيد أبو موسى، أمين سر القيادة المؤقتة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح، والقائد العسكري للقوات الفلسطينية، كما أعلن سابقاً.
- صورة العقيد أبو خالد العملة، الناطق الرسمي باسم القيادة المشتركة، وأحد الكوادر العسكرية المتقدمة.
- صورة المقدم زياد الصغير، مسؤول عسكري، ونائب أمين سر المجلس الثوري لحركة فتح.
- صورة المقدم أبو رعد، مسؤول عسكري، ومساعد رئيس غرفة العمليات في حركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح.
- صورة يوسف قطناني (أبو الوليد) مسؤول القوات في جبهة التحرير الفلسطينية.
- صورة الأخ فواز، قائد معسكر الشهيد عبدالله صيام...، إلخ. هذه الأمثلة العديدة، التي تقدم أسماء وصور ومناصب القيادات العسكرية لأجهزة العدو، مجاناً وبدون تعب.

ما مبرر ذلك؟ ولماذا لا تحتج هذه القيادات العسكرية على النشر اليومي المتكرر لصورها؟ لا مبرر لذلك سوى التربية الاستعراضية التي تعودوا وتربوا عليها، وترسخ الرغبة النجومية لديهم، فوضعوها فوق الاعتبارات الثورية، وأمن الثورة.

(ج) الإعداد المبكر المقصود للنجوم:

على غرار إعداد النجوم في الوسط الفني العربي والهوليودي، حيث توضع خطة، وميزانية دعائية خاصة

لكل فنان، كذلك ففي هذه الصحف والمجلات، يبدأ الإعداد النجومي للعناصر والكوادر مبكراً. لذلك يبدأ نشر الصور الشخصية للعناصر الصغيرة مهما كان وضعها التنظيمي، سواء من الصف الثاني أو الثالث عشر، ويبدأ نشر تصريحاتها (!) وأقوالها (!) مدعمة بالصور، وكأن هذا التصريح أو القول مما يجب توثيقه، لأنه أثّر في تطورات القضية والثورة. وفي هذا السياق، تصدمنا صور وتصريحات وأقوال وأعمال، هذا الصف من العناصر والكوادر، ومنها في الأمثلة التي استعرضناها:

- صورة الأخ جابر سليمان عضو المجلس الثوري لحركة فتح.
- صورة الأخ بسام هلسا رئيس تحرير جريدة فتح.
- صورة الأخ أبو خضر مشرف إقليم سوريا في حركة فتح.
- صورة الأخ عبدالهادي النشاش، رئيس تحرير مجلة القاعدة.
- صورة الأخ أبو مروان عضو القيادة المؤقتة لجبهة التحرير الفلسطينية.
- صورة الأخ أبو السعيد أمين سر إقليم سوريا في جبهة التحرير الفلسطينية...، إلخ هذه الأسماء التي مرت بنا.

إن نشر صور وأسماء وتصريحات وأقوال هؤلاء الإخوة ـ مع احترامنا الشخصي لهم ـ يدل على الأسلوب السائد، في كيفية إعداد النجوم في صحف المقاومة، لأنني لم أجد مبرراً ذاتياً أو موضوعياً لنشر هذه الصور وما رافقها، سوى المفهوم السائد، الذي يتعامل مع هذه الصحف كإقطاعية خاصة، وبالتالي فإن كل من له علاقة بالتنظيم، يجب أن يأخذ حقه من النجومية، سواء كان عسكرياً من الصف الأول يجب بقاء اسمه وصورته سرية للغاية، أو من الصف الثالث وما بعده، كالأسماء التي استعرضناها أو مقاتل عادي، كصورة المقاتل أبو عبده التونسي في العدد (٤١) من مجلة «القاعدة».

٣ ـ مافيا الثقافة:

كغيرها من الصحف والمجلات العربية، لا تخلو أية مجلة من مجلات المقاومة من الصفحات المخصصة للأدب والفن والثقافة. وهذه الصفحات يفترض أن تكون من أرقى مثيلاتها في الصحف العربية، إلا أن دراستها وتتبعها بدقة وموضوعية يثبت عكس ذلك، ويدلل على أن هذه الصفحات لم تتحرر أيضاً من الصفات المظهرية السلبية التي عددناها سابقاً، وقد أسهمت هذه الصفات ـ تطبيقاً على الصفحات الثقافية ـ في انحطاط مستوى الإبداع الفلسطيني، والنقاش النقدي كذلك، مما جعل هذه الصحف والمجلات تشكل جناية كبيرة على الثقافة الفلسطينية، وفي هذا المجال، تتوقف عند المظاهر السلبية التالية:

١ ـ فرض الأسماء عنوة:

لما كان كل تنظيم أو فصيل فلسطيني، صغيراً كان أم كبيراً، جديداً أم قديماً، جماهيرياً أم مغلقاً، يمتلك صحيفة أو مجلة على الأقل، فقد أصبحت الصفحات الثقافية في هذه الصحف والمجلات حقلاً مفتوحاً بدون رقيب، وبدون أية شروط إبداعية أو موضوعية، لكتّاب التنظيم وصحفيّيه وأصدقائهم. وقد أدى ذلك إلى إتاحة الفرص يومياً وأسبوعياً لـ(مافيا) التنظيم وأصدقائها، لنشر كل ما يكتبون، مهما كان مستواه، في الشعر والقصة والرواية والنقد، وإذا بنا ـ ومنذ ما يزيد على (١٥) عاماً ـ نقرأ يومياً وأسبوعياً في كل صحيفة ومجلة لعدد محدَّد من الكتّاب والصحفيين، لا نقرأ لهم في الصحف والمجلات الأخرى، وقد أدى هذا التكرار اليومي والأسبوعي على مرّ السنوات السابقة إلى فرض أسماء كتّاب وصحفيين عنوة وبشكل قسري، دون أن يقدموا كتابات ذات مستوى، تؤهلهم للانتشار الحالي الذي يتمتعون به في الساحة الأدبية والثقافية، آخذين في الاعتبار الحقيقي أنه انتشار شكلي، لا يعدو معرفة الاسم فقط، لأن أغلبهم لم يقدم إبداعاً أو نقداً سيحفظ له في الذاكرة الأدبية، لذلك فإن مجرد عدم تكرار هذه الأسماء في مجلاتها وصحفها، سيؤدي بها إلى عالم النسيان. والجدير بالملاحظة أن أغلب هذه الكتابات في مجلة أو صحيفة تنظيمية، لا يمكن الموافقة على نشرها في مجلة تنظيم آخر، لأن هذه الصفحات مفتوحة فقط لكتاب التنظيم وصحفييه، مهما كانت مستويات هذه الأسماء...

إن هذا الفرض القسري للأسماء في الساحة الثقافية الفلسطينية، أعطى هذه الساحة عشرات الأسماء التي لم تقدم شيئاً ذا مستوى، ورغم ذلك فهي أسماء متداولة في عالم الشعر والقصة والرواية والنقد، رغم أنف الجميع، وتراكم نتاجات هؤلاء على مرِّ السنوات الماضية، كان من الأسباب الرئيسية في تدهور مستوى الثقافة الفلسطينية الحالية.

٢ ــ انحطاط مستوى الحوار والنقاش:

في سنوات سابقة، تصل إلى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن، أسَّس الجيل السابق مسألة مهمة، هي الحوار والنقاش العلني على صفحات الجرائد والمجلات، في موضوعات السياسة والثقافة، وكان النقاش يدور عنيفاً محتدماً على صفحات (الثقافة) و(الرسالة) المصريتين بين جيل العمالقة أمثال: طه حسين والعقاد والشيخ علي عبدالرازق ولطفي السيد وآخرين، ولأن هذا الحوار كان موضوعياً، يهدف إلى تفنيد الرأي الآخر وصولاً إلى الحقيقة، نجد أن مسائل النقاش ما زالت تعيش حتى اليوم، بعد أن كتب حولها أكثر من كتاب، ويستطيع الباحث أن يجمع بين دفتي ما يزيد على خمسة كتب، ما دار من نقاش وحوار حول كتابي (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين و(الخلافة الإسلامية) للشيخ علي عبدالرازق. وقد حظيت المكتبة العربية بعدة كتب حول المعارك الأدبية التي دارت في الصحافة الأدبية والسياسية العربية. لقد وجد الحوار والنقاش أساساً لتفنيد الرأي الآخر، ولبيان الحقيقة الموضوعية.

ومع ظهور المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٥، بدأت الصحف والمجلات الفلسطينية في الصدور، وتربو الآن في مجملها عن خمسين صحيفة ومجلة، ما توقف منها وما يزال مستمراً في صدوره. وكان الانطباع السائد من البداية، أن هذه الصحف والمجلات لا بد أن تكون مختلفة عن مثيلاتها العربية، لأن صدورها عن فصائل مقاومة، سيجعل مساحة الديمقراطية المتوفرة فيها أفضل من غيرها، لأن ثورة تعاني القمع والقهر في كل الساحات العربية، لن تصادر رأياً أو فكراً. ولكن ــ بالتدريج ــ تحولت أغلب هذه الصحف والمجلات إلى مطبوعات تنظيمية، همها الأساسي التعبير عن وجهة نظر التنظيم مهما كانت، وتفنيد وجهات النظر المضادة، وانغلقت في الغالب على كتاب التنظيم وأصدقائه، مغلقة صفحاتها أمام وجهات النظر والأقلام الأخرى. ومع تراكم هذه الأمور، وأمور أخرى، نجد أنفسنا اليوم أمام فهم غريب وخطير، مفاده أن الديمقراطية تعني أن يكتب الفرد ما يريد، وبالطريقة التي يحب، وبالأسلوب الذي يرضي نفسيته، مريضة كانت أم سليمة، والجدير بالملاحظة أن كتّاب التنظيم وأصدقائه، لا يستطيعون نشر أغلب كتاباتهم هذه، في صحف ومجلات أخرى. وقد أدّت هذه الحالة في التطبيق العملي إلى انعدام الضوابط والمقاييس المهنية، خصوصاً وأن أغلب رؤساء التحرير ومدرائه وسكرتيريه، كانوا ــ وما يزالون ــ من أعضاء التنظيم وأصدقائه، الذين لا علاقة لهم بالصحافة، وشرف المهنة، فأصبحت صفحات هذه الجرائد والمجلات حقولاً إقطاعية لهم، يسرحون فيها كما يريدون، يكتبون ويشتمون ويجرّحون، دون أي ضوابط أخلاقية أو مهنية. هذه الحالة عموماً، أوصلتنا إلى انحطاط مستوى الحوار والنقاش السائدين في الصحافة الفلسطينية، إنحطاط جعل الغالب على هذا الحوار تبادل التهم بالخيانة والعمالة والجاسوسية. أما في ميدان الثقافة، فأصبح من حق أي مبتدىء تقييم ما يريد كما يريد رغم عدم معرفته بأصول النقد وموسوعيته، لذلك تدور أغلب هذه الأحكام في سياق المجاملة والشللية، دون اعتبار لأي ضوابط، سوى تبادل المنفعة والنجومية. وفي الشهور الأخيرة، نشرت كتابات في أكثر من صحيفة ومجلة فلسطينية، أوصلت مستوى الحوار والنقاش إلى انحطاط لا مثيل له:

ــ في الميدان السياسي، أصبح من السهل الشتم وتبادل التهم بالعمالة والخيانة، بدلاً من تفنيد الآراء وطرح نقيضها العلمي الموضوعي.

ــ في الميدان الثقافي، أصبح الردح والسباب الشخصي، هما السائدين، بدلاً من الدراسة النقدية العلمية.

وفي النتيجة، نجد أنفسنا أمام حالة غريبة، لا تشرف هذه المجلات، ولا كتّابها، وما ينشر في هذه

الصحف، لا يمكن نشره في صحيفة مقاومة أخرى، أو مجلات عربية.

* * *

لقد أدّت تلك الظواهر في عمومها، إلى تخلّف صحف المقاومة ومجلاتها، وإلى تقوقعها لتصبح نشرات حزبية مغلقة، لا علاقة لها بالجماهير ففقدت تأثيرها وفاعليتها، ويستدلّ على ذلك من تكدّسها في المخازن، إذ لا حرص لدى الجماهير من أجل تتبعها ورصد ما فيها، لأن العلاقة بين الطرفين مقطوعة أو محدودة، وهي لا تقدم خدمة للجماهير في أغلب الحالات، لأنها تعبر عموماً عن مناكفات تنظيمية بعيدة عن مصلحة الجماهير الأساسية.

تعـريفـات:

(١) جريدة (فتح)، كانت تصدر في الأردن قبل عام ١٩٧٠ عن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). وبعد الإطاحة بجماعة (أبو صالح) من المنشقين، أعاد المنشقون إصدارها لتعبر عن رأي من تبقى منهم، وهم جماعة (أبو خالد العملة ــ الياس شوفاني).

(٢) مجلة (القاعدة)، كانت تصدر في بيروت قبل عام ١٩٨٢ عن جبهة التحرير الفلسطينية. وبعد انشقاق عبدالفتاح غانم، أعاد إصدارها في دمشق لتعبر عن رأي جماعته.

(٣) مجلة (الهدف) الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

(٤) مجلة (نضال الشعب) الناطقة بلسان جبهة النضال الشعبي الفلسطيني.

(٥) مجلة (الحرية) الناطقة بلسان الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

(٦) مجلة (فلسطين الثورة) هناك مجلتان بهذا الاسم، واحدة تصدر في قبرص تعبر عن وجهة نظر حركة فتح ــ عرفات، وأخرى عن وجهة نظر فتح ــ المجلس الثوري (أبو نضال).

(٧) مجلة (إلى الأمام) الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة.

(٨) مجلة (الطلائع) الناطقة بلسان طلائع حرب التحرير الشعبية ــ قوات الصاعقة.

□ □ □

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور أدونيس